مجلة منيرفا..... Αθηνά
مجلد(06) العدد(01) ISSN : 2437-0703 EISSN :2600-6448
https://www.asjp.cerist.dz/secretaire/prePublication/201

الإنسان والشخصانية من منظور محمد العزيز الحبابي

Man and Personality from the Perspective of Muhammad Al-Aziz Al-Habbabi

الاسم واللقب: رحموني ميلود *
مختبر: /
كلية: العلوم الاجتماعية والانسانية **جامعة:** وهران **البلد:** الجزائر
البريد الالكتروني: rahmounimiloud5@gmailcom
قَدم للنشر في:2021-10-27 **قَبِل للنشر في:** 2022-03-16.
تاريخ النشر: 2022-05-01.

1-ملخص باللغة العربية :

هناك الكثير من الفلسفات التي اهتمت بالإنسان، ومن بين هذه الفسفات والمذاهب نجد الفلسفة الشخصانية، ظهرت هذه الفلسفة في فرنسا ، وسميت بفلسفة التحرر ، لأنها جعلت من الحرية غمارة للتشخصن .

لقد اهتم محمد العزيز الحبابي بهذه الفلسفة ، وحاول أن يقرأ الواقع العربي الإسلامي بتطبيق مضامينها عليه ن واتجه إلى تطوير هذه الفلسفة فظهر عنده مفهوم الشخصانية الواقعية ، ثم بحث عن حضور معالم هذه الفلسفة في الدين الإسلامي فجاء يما يسمى بالشخصانية الإسلامية .

ملخص باللغة الإنجليزية

There are many philosophies that are concerned with man, and among these philosophies and sects we find the personalist philosophy. This philosophy appeared in France, and was called the philosophy of liberation, because it made freedom a deep one for personalization. Muhammad Al-Aziz Al-Habbabi was interested in this philosophy, and tried to read the Arab-Islamic reality by applying its contents to it.

كلمات مفتاحية الأنا، الآخر ، الشخص ، الأخلاق ، الشخصانية .

Keywords ego; the other; Person, Morality, Personality.

1- مقدمة

إن الحركة الفكرية التي عرفتها أوربا في مرحلة الإحياء أو في عصر النهضة كان سببا في ميلاد الكثير من التصورات ، التصورات التي حملت في كيانها المفاهيمي وبنيتها الإيديولوجية العديد من الأفكار المتجددة حتى نتفادى أن نحكم عليها بأنها أفكار جديدة ، وإن فلاسفة عصر التنوير قد نظروا إلى هذه الأفكار على أنها جديدة ومن إنتاج العقل الأوروبي

* رحموني ميلود باحث جامعي وطالب دكتوراه ، جامعة وهران .

الذي أعاد قراءة تاريخ الفلسفة قراءة أقل ما نقول عنها على أنها قراءة إثنية ، قراءة حاولت أن تمركز العقل الأوروبي على أنه عقل تجاوز كل الفلسفات التي سبقته .

لقد كان من نتاج هذا المخاض ظهور العديد من الفلسفات والمذاهب الفلسفية التي اهتمت في مرحلة الفكر الأوروبي الحديث على بلورة نظرية حول مشكلة المعرفة ، واتجه المساق هنا إلى ظهور العقلانية والتجريبية ، فلسفتان أثرتا كثيرا على ملمح الفكر الأوربي في هذه المرحلة وفي المراحل التي تلته ، وتركيز هذه الفلسفات على مشكلة المعرفة كان بمثابة الأمر الذي حجب عنها الاهتمام بواقع الانسان ، وهذا التغافل أدى إلى ظهور تنفير من الفلسفة لاحقا بحكم أنها لم يعد لها قيمة ودور في تغيير واقع الانسان ، وأزمة القلق التي لحقت الانسان المعاصر ملمح ودليل على تجاهل هذا الجانب الأساسي والمهم في أطروحات الفلسفة الحديثة .

إن الأفكار والمذاهب التي جاءت بعد العقلانية والتجريبية حاولت أن تحتوي هذا النقص الحاصل عندها ، لذلك جاءت بعض الفلسفات كالوجودية والبراغماتية كفلسفات حاولت أن تنظر في ما يمكن أن يزيل قلق الانسان المعاصر ، لكن هذه الفلسفات هي الأخرى لم تستطع أن تحل هذه الأزمات ، ويعتبر هذا الواقع بمثابة الدافع إلى ظهور ما يسمى بالفلسفة الشخصانية أو كما تسمى بفلسفة التحرر ، كمذهب فلسفي أو تيار فلسفي حاول أن ينفذ إلى صميم الأزمة عن طريق نقد الفلسفات الحديثة ، أي نقد أطروحات مذاهبها وتصوراتها ، كما يعتبر محمد العزيز الحبابي من المفكرين العرب الذين آمنوا بأفكار الفلسفة الشخصانية ، حيث اتجه هذا المفكر إلى تحليل الواقع العربي من منظور هذه الفلسفة ، لذلك نجاول من خلال هذا المقال طرح الإشكالية تتعلق بصلب إهتمامات هذه الفلسفة ، حيث نصيغ هذه الإشكالية علة النحو التالي : هل الأفكار التي تؤمن بها الفلسفة الشخصانية كفيلة بتحقيق معنى إيجابي للوجود الإنساني؟

2. أزمة المثقف العربي في منظور الحبابي:

محمد العزيز الحبابي في الحديث عن واقع الثقافة العربية الاسلامية بوصفه بأنه واقع راكد ولا يرسم معالم محددة للمستقبل من حيث أنه واقع لا يبشر بخير ، وفي سياق يقول الحبابي : "إن خريطة العالم الثالث والعالم الإسلامي خاصة ، خريطة إطارها الشمس ، دفئا وضياء ، ولكن الضربات الشمسية قد تؤدي الى الموت ، إذا لم يكن داخل الدماغ سوى الفراغ . الشمس تنعش من يحسن التكيف معها ، وتقضي على الآخرين ، أصحاب الاتكال ، اللامبالاة..."[1].

عودة الحبابي إلى مسقط رأسه جعلته يصدم بواقع لم يكن يتصوره ، ونقصد به واقع المثقف المغربي الذي يشير إلى المثقف العربي بصفة عامة ، فذلك الحماس الفياض التي خزنه الحبابي لبعث سجية الفكر العربي الإسلامي ، سرعان ما ذبل عنده وتحول إلى حيرة ودهشة صادمة ، وهو الأمر الذي دفعه إلى طرح العديد من التساؤلات حول دور المثقفين

[1] الحبابي ، م العزيز ، دور المثقف اليوم وعلى مر العصور ، مجلة الأصالة ، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ،العدد 20، جوان ، ص 31 .

في ملامسة الواقع وتغييره من خلال التفكير الجاد الذي يجعل من التغيير والتطور أهداف لابد من تحقيقها .

إنّ واقع الثقافة العربية واقع تهزه الأزمات ، وتضعفه المماحكات الفكرية القديمة ، فلم يكن الحبابي ليصبر على هذا الواقع المخزي ، لذلك تعتبر كتابات الحبابي بمثابة اللحظة التي أعاد فيها استئناف التفكير والتأليف كتفاعل وجداني وحقيقي مع روح هذا الواقع ، فراح يكتب ليعالج أزمة الثقافة العربية ، بادئا في هذا الفعل بذم المثقفين العرب على تخاذلهم ، وجسد موقفه هذا في الرواية الوثائقية "جيل الظمأ" التي يلامس فيها مصاب واقع الثقافة العربية .

إن رواية " جيل الظمأ " مؤلف يتجه من خلاله الحبابي إلى : " فضح سلوك بعض المثقفين المغاربة ، الذين خانوا الأمانة ، وأصبحوا يعيشون في الضحالة الفكرية والخداع المستمر والتملق المسفي ، متوقعين على مرتباتهم وترقّياتهم وأرقامهم الاستدلالية ..." [1] .

كما يحدد لنا الحبابي أن دور المثقف لا ينحصر أساسا في اجترار ثقافة الآخر بقدر ما هو سعي الى تجديد الثقافة الاسلامية وبعثها من جديد وفقا لخصوصية الموقف الحرج الذي تعيشه المجتمعات الثالثية ، وعليه حدد الحبابي مهمة للمثقف قائلا : "مهمة المثقفين والمفكرين إذا ما أرادوا خدمة الإنسانية ، هي أم ينقطعوا عن اجترار الأفكار في عالم من الأحلام والعواطف الجميلة ، لواجهوا العالم بوضوح وأن يجسدوا الواقع بموضوعية ، فجميع الثقافات مهما تعددت الفروق بينها تهدف الى نفس الغاية ، وهي تجهيز الشخص بأفضل الوسائل البدنية والعقلية التي تمكنه من القي على أحسن وجه " [2] ، ويميز الحبابي المثقفين ويقسِّمهم الى ثلاثة أنواع :

أ- حمالي الثقافة : هذا النوع من المثقفين ينظر إليهم الحبابي على أنهم جمالي الأسفار والأثقال .

ب-المثقفون المرتزقة : هذه الفئة من المثقفين تجعل من الثقافة مجرد وسيله لكسب المال والشهرة حيث يصفهم أحمد الحبابي قائلا :" يتبخترون كالطواويس ، مثل نجوم السينما . فمن الطبيعي أن تكون الثقافة ، في نظر هؤلاء ، مجرّد ابتسامات مصطنعة ومضغ عبارات ، والسير في الشارع ، وتحت الإبط حقيبة أو مجلات أو صحف " [3] .

ج- المثقفين الأنانيين : الذين يجدون في الثقافة وسيلة للتسلية ، فالثقافة عندهم بدون بعد مجتمعي ، ثقافة اللهو .

بعد أن ذكر لنا الحبابي أصناف المثقفين اتجه إلى نعتهم قائلاً : "... تلك الأصناف من المثقفين ، تتواجد وتتآمر، عفويا، على العالم العربي الإسلامي، لأنها تمثل وتزكي موضوعيا الزيف لنا آلاف وآلاف من المفكرين ، وما لا عد له من الأطباء والصحفيين مع ذلك : أين تخف مما يجب أن نكون ؟ " [4].

---

[1] اليابوري ، أحمد ، الرواية الوثائقية جيل الظمأ ، دراسات معرفية ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ،ط2 ، 1987 ، ص 19 .

[2] العراقي ، عاطف ، العقل والتنوير في الفكر العربي المعاصر ، دار قباء ، مصر ، د (ط) ، 1998 ، ص ، 489 .

[3] أنظر : أحمد اليابوري وآخرون ، السابق ، ص ، 19 .

[4] الحبابي ، السابق ، ص ، 36 .

هذا المثقف الذي يخشى النقد ويخافه هو المثقف نفسه الذي يحبذ تجاهل الواقع بدلا من أن يجابهه ، وهو المثقف الذي يميل الى الصمت والخنوع رغم الإهانة . ولأن دور المثقف ليس دورا منوطا بالعامة من الناس ، لأنه ليس بالإمكان أن يقوم الناس بدور الرقيب العام ، ومهمة تغيير الواقع مهنة منوطة بالمثقف وحده ، وفي هذا السوق يقول الحبابي: " فالدعوة الى المعروف أو الى الابتعاد عن المنكر فرض عين على مقدار وضوح وعمق المعرفة بما هو حسن وخير ، وبما هو قبيح وشر" [1] .

والتاريخ الإسلامي ضرب لنا نموذجا لا يضاهيه نموذج ، وهو الرسالة المحمدية ، أو طوالع البعثة المحمدية ، التي جاءت في أرض ومناخ له خصوصية ، وما كانت هذه الرسالة تغدو الى العالمية إلا بالصبر والكد والمواصلة . فرغم ما تعرض له الرسول الكريم من مقاطعة ، وتعذيب هو والذين معه ، إلا أنه واصل حمل رسالته حتى أبلغها الذين من بعده الى مشارب الأرض كلها . فلم يخنع الرسول لتلك المعوقات ولا أصحابهم ، بل زادهم ذلك إيمانا وعزما للوصول الى هدفهم.

ولم تحقق البعثة المحمدية مراميها بالعبث ، واللامبالاة ، ولكن تحققت تلك الأهداف ، لأن الانسان الذي آمن بتلك الرسالة أقسم وأخذ على عاتقه ضرورة استمرارية هذه الرسالة لما فيها من أصالة، فكان ضمير الانسان المصلح ضميرا حيا مدركا لما يقوم به ، بعيدا عن أوجه الإغراء، والتبجح بالكماليات، فبدل من أن تستمر هذه الرسالة وتجدد في يومنا هذا من طرف المصلح الأصيل الذي نسميه اليوم المثقف والمفكر، راحت تندمل ، وتنسى ، والمفكر الحق هو المفكر الملتزم الذي يقبل التضحية بنفسه من أجل وطنه .

إن العالم الغربي يوم يستعد لقفزات أخرى ، في حين أن المثقف العربي اليوم يتساءل بمرارة عن مصدر هذه الثورة الشاملة التي تعرفها أوربا ، ويتساءل عن أسبابها ، برغم من أن التاريخ الإسلامي حافل بالكثير من النصوص العملية ، التي سبق العرب فيها الغرب منذ سنين خلت ، العرب عرفوا المنهج التجريبي قبل أن يصل اليه "بيكون" و"باسكال".

وعندما عجز هذا المثقف عن تفكيك أسباب الركود الثقافي وإيجاد الحلول لواقع الثقافة العربية ، راح يتبنى فكر الآخر معتقدا أنه الفكر الذي يملك المنهج والبديل لتغيير هذا الواقع ، والانغماس في ثقافة الآخر وتوظيف مناهجه لا يحل الأزمة حسب الحبابي بل يعمقها ويعقدها ، ونأخذ على سبيل المثال ، تاريخانية العروي، الذي يحاول إرغام الواقع على مرور بتجربة التي مرت بها المجتمعات الغربية ، متناسيا خصوصية المجتمعات العربية ، كما نجد من الجهة الأخرى تجربة "تيزني" صاحب مشروع رؤية "رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط"، التيزني سقط كما سقط غيره في الماركسوية .

محاولة هؤلاء المفكرين تبني رؤية فلسفية جديدة التي تجعل من فكر الآخر مرتكزا لها ، هي المحاولات حسب الحبابي تبتعد كثيرا عن المسارات الثقافة الإسلامية الأصيلة ، وهذه المشاريع لن تجد مكانة المناسبة لها داخل بنية المجتمعات الثالثية نظرًا

[1] الحبابي ، السابق ، ص ،38 .

لخصوصية تراثية وتاريخية التي تتحكم في هذه البنية ، وفي هذا الشأن يقول الحبابي : " كل ثقافة لا تقدم معها ليست ثقافة ولا فائدة في أصحابها "الثقافة للثقافة" إنما تجرّد الواقع من واقعيته ، وتجعل التفكير تخريفا أو تدجيلا . إن الفكر ماطر بتاريخ معين ، فيه تفاعل مع الجماعات البشرية في مسيرة النمو المادي نحو الاكتفاء ، والنمو النفسي نحو الاكتمال" [1].

يؤكد الحبابي على أن الثقافة ، العلم والتفكير تعتبر وسائل لا غايات في ذاتها وينظر إلى التاريخ الانساني على أنه تأمل متواصل ، فالتفكير في التغيير والدعوى إلى الحق هو تجنيد عام لكل الطاقات البشرية على مختلف مستويات المجتمع بحكم وجود غايات وأهداف مشتركة وجب تحقيقيها والوصول إليها ، والمثقف هو أساس والفاعل الأساسي في هذا التغيير ، وركيزة من ركائز المجتمع إذا ما حس بنبل مهمته وقيمتها .

3. مدخل الى فلسفة الشخصانية

1. إن كلمة الشخصانية كلمة مأخوذة من لفظ شخص ، وهي في مضمونها الفلسفي تعني إيجاد نمط فكري فلسفي جديد ينبثق عن الانسان في سعيه لإبراز قيمته ، وهي كذلك اتجاه فلسفي يبحث في ضرورة خلق فلسفة جديدة يرتكز خطابها على دراسة شخصية الإنسان من كل أبعاده ، الأخلاقية والانسانية (الأبعاد المجتمعية)، "إن هذه الفلسفة تملي عليه شروطا خارجة عن واقع تركيبته ، وأبعاده البشرية..." [2]. وهذا التيار الفلسفي لا يمكن دراسته إلا إذا نظرنا الى الظروف والعوامل التاريخية التي جعلته يبرز كتيار جديد في الفكر الفلسفي، ولعل من أكبر وأهم الأسباب التي بلورت هذا الخطاب ، الحربين العالميين ، والأحداث التي عرفتها الإنسانية من اضطهاد وظلم وتعسف . كما كان لظهور العديد من الفلسفات والمذاهب الفلسفية الفضل في ظهور هذا التيار ، وسنحاول ذكر أهم هذه الفلسفات كما يلي :

1-1- تطور العلوم الوضعية : لقد استطاعت العلوم الوضعية إحراز تقدما بالغ الأهمية في ميدان الاكتشافات والاختراعات ، حيث حاولت هذه العلوم تعاطي النظرة الوضعية في تفسير كل الأشياء التي ترتبط بالوجود تفسيرًا علميًا ، ورياضيًا ، مضبوطًا بالمعادلات كمية وكيفية ، وقد كان من نتائج هذا التوجه في هذه العلوم أن رمت بالقيم الانسانية (الحرية - الأخلاق) في سلة المهملات ، وحاولت هذه الأخيرة إحالة هذه القيم الانسانية ، والأبعاد المجتمعية للإنسان الى التجربة والتفسير السببي . فالكرامة ،والحرية ومصير الإنسان من المسائل التي لا يمكن إحالتها إلى التجربة العلمية ، بحكم أن الإنسان ليس معطى مادي فحسب ، فهو يتكون من جسم ونفس ، ويتمتع بقيم روحية لا يمكن أن تدرسها كما ندرس الجاذبية الأرضية وغيرها من شبيهات هذا الموضوع ، وفي هذا السياق يقول محمود جمول :" فلهذا قامت الشخصانية كحركة مقاومة في وجه تطرق هذا الاتجاه الايجابي للعلوم ، وتطبيقها دون حذر على الانسان يشكل يسلبه حريته ويقضي على أبعاده الداخلية "[3].

1-2- العلوم الانسانية: المقصود بالعلوم الانسانية هي العلوم التي تأخذ على عاتقها دراسة الانسان وعلاقته مع العوامل الخارجية كالأنثروبولوجيا ، الأنطولوجيا ، علم التاريخ

---

[1] الحبابي ، المرجع السابق ، ص ، 39 .
[2] محمود ، جمول ، مدخل إلى فهم فلسفة الشخصانية ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، عدد 86 – 87 ، مركز الهناء القومي ، ص 91 .
[3] محمود جمول ، السابق ، ص ، 92 .

، علم الاجتماع ، علم النفس وغيرها . والدارس لهذه العلوم ومناهجها المطبقة في الوصول الى الحقائق ، سيلاحظ حتما أنها علوم تعمل وفقا لقوانين لا يمكن الحياد عنها ، فإن اختلفت مضموميها ونتائجها فهي تلتقي عند نقطة واحدة ، وهي مسألة الانسان والبحث عن الوجود ، والوجود في مجال الأنثروبولوجيا والأنطولوجيا مبدأ خاضع لما تسميه هذه العلوم بقانون الوجود ، يعني المراحل التي مر بها الكائن البشري في تدرجاته الوجودية ، هذه المراحل التي تشكل قانونا بالنسبة لهذه العلوم يمكن تطبيقه وتعميمه على كل الظواهر الإنسانية ، ومن أهم النظريات التي تنبت مثل هذه الخطابات نجد النظرية "الداروينية" ونظرية "وسمان"، ويزيد محمود جمول في هذا الشأن قائلا : " ولقد كان لنظرية التطور أثرها في البيولوجيا والفلسفة نفسها وحتى في بعض الفلسفات الاجتماعية ، وهذا مظهر جديد من مظاهر التفاعل بين العلوم المختلفة ، والنتيجة الطبيعية لمثل هذه النظريات في الأنثروبولوجيا والأنطولوجيا هي الأشغال من الفرد الى النوع وتخفيف من قيمة الفرد ودوره لصالح الجماعة" [1].

وعلى الصعيد الآخر ، نجد ظهور مدرسة التحليل النفسي مع روادها "فرويد"،"أدلر" و"يونغ" ، وهذه المدرسة تعتبر بمثابة اتجاه آخر في العلوم الانسانية ا يتميز هو الآخر بمناهجه وأطروحاته الخاصة به ، ومن مقولات هذا الاتجاه : إرجاع الحياة النفسية الى الجانب اللاشعوري أي اللاواعي ، ويعد القول باللاشعور بمثابة الإكتشاف التي قدم إضافة في فهم وإضاءة الجانب المتعلق بالحياة النفسية ، وفي هذا السياق يقول محمود جمول : " مما لا شك فيه أن هذه خلقت نوعا من السببية أو الحتمية في فهم الإنسان وتفسير الشخصية بعوامل وأسباب ترجع إلى اللاواعي والماضي الى الطفولة ، ولا تعطي أهمية كبرى أو كافية للحاضر والحرية والفاعلية والمبادرة الفردية" [2]. ولا تهتم الشخصانية بالنتائج الكلية للعلوم الإنسانية ، ولكنها ترفض مثل هذه التفسيرات لما فيها من تقليل من قيمة الانسان.

3 -1 - الفلسفة الوجودية : في الفلسفة الوجودية ثلاثة اتجاهات مختلفة منها :

أ-الوجودية المسيحية : ويعتبر "كير كيغارد" من مؤسسي هذا التيار تم تبعه "كارل ياسبرس" ، "غابريال مارسيل" ، "لويس لافيل " ، جاء هذا التيار كرد فعل على فلسفة هيجل ، حاول هذا التيار الوجودي إخراج الذات والحرية من دائرة السببية المفروضة على الإنسان.

ب-الوجودية الصوفية : نجد ما يشابه هذا التيار في الفلسفة الاسلامية خاصة عند رابعة العدوية، وجلال الدين الرومي ، والحلاج ، وابن القارض ، وابن العربي ، وكان يمثل هذا الاتجاه في الفكر الغربي "نيكولا بريياديف"، يدعوا هذا الاتجاه الى الترفع عن مادية العالم الطبيعي ، لبلوغ أعلى درجات الاتصال الروحي.

ج-الوجودية الملحدة:

هذا التيار هو الأكثر بروزا من حيث أنه اتجاه عرف بجرأته على إثارة وتناول المسائل المسكوت عنها ، يمثل هذا الاتجاه "نتشه"، هايدجر "،"سارتر" ، من مقولات هذا الاتجاه :

* إنكار وجود الخالق.

---

[1] محمود جمول ، السابق ، ص ، 93 .

[2] محمود جمول ، السابق ، ص ، 93 .

* إنكار كل الماهيات التي تفرض على الانسان وجوده ونمط حياته.
* إنكار الحتميات وسائر قوانين السببية.
* تسخير كل العوامل من أجل الحرية المطلقة.
* التشديد على الصراع بين الفرد والجماعة من أجل الحرية .

هذا التيار الوجودي (الملحد) بهذه المقولات ، يتجاهل دور الخالق ودور القانون الوضعي في تنظيم سلوك الناس ، فالدعوة الى صراع الحريات هذا شيء يهدد المصير الإنساني ، ولا يكاد هذا المطلب يختلف عن الحرب التي دعى إليها "هوبز" الجميع ضد الجميع ، فلهذا ولذلك جاءت الشخصانية كفلسفة جديدة أرادت أن تنقد هذه الفلسفات والعلوم التي حاولت التقليل من قيمة الانسان داخل الجماعة.

إذن الفلسفة الشخصانية قامت كرد فعل على تلك الفلسفات التي حيزت الوجود الإنساني داخل اعتباراتها الضيقة ، ويعتبر وجود الوجودية والماركسية ملازما لظهور فلسفة الشخصانية ، التي ظهرت في فرنسا في البداية مع الفيلسوف الفرنسي "رونوفي" ، الذي كان له كتاب يحمل عنوان "الشخصانية" ، ثم تطورت هذه الفكرة مع فيلسوف فرنسي آخر هو " إيمانويل موني " [1] . هذه الفلسفة تؤمن بفعالية الانسان وقدرته على الخلق والعمل والتحول ، والانتقال بالمجتمع وتغييره بشكل يحفظ وجوده ويصون كرامته ، هذه فلسفة تسعى إلى دفع الانسان من خلال استشعاره بقيمته الوجودية ، وعندما يدرك قيمته الوجودية يكون حينها قادرا على تحويل الواقع المادي الاجتماعي إلى محيط صالح لتحقيق الحرية المسؤولة ، والبيئة الصالحة ، التي تضمن تطور الشخص من خلال توظيف واستثمار عوامل مختلفة منها : الدين ، العلم والتقنية .

الفلسفة الشخصانية تحفز الإنسان على الايمان بالحياة ، لأن الايمان في نظرها يلتقي مع القلق، وهذا الإلتقاء إيجابي يتجه بشكل قصدي إلى إحداث التغيير . وهناك إنشغالات أخرى عنيت بها الشخصانية ، وحاولت جعلها في صلب اهتماماتها كتقريب المرأة من الرجل ، والاهتمام بالعلاقات .

4. الشخصانية الواقعية عند الحبابي:

لقد إهتم محمد العزيز الحبابي بهذه الفلسفة لأنها فلسفة تهتم بالوجود الإنساني ، وحدد لها الإطار العام كفلسفة تلتقي مع واقع العالم الثالث الذي لم يتمكن من تشخيص وجوده ضمن التغيرات التي تحصل في العالم من جهة ، كما حدد لها من الجهة الأخرى توجها يكمن في جعل هذه الفلسفة تتمحور باهتماماتها على مفهوم الشخص وعلى المراحل التي يمر بها في عملية تحوله من نمط الى آخر ، وعلى هذا حدد الحبابي مفهوما للشخصانية على أنها عملية يجري من خلالها إثبات الشخص الذي انتقل من كائن خام إلى كائن تاريخي ، وهذا ما يقدمه الحبابي في كتابه "من الكائن الى الشخص" كون هذا الكتاب جاء ليعبر على هذا الاتجاه الفلسفي كخطاب جديد في فكر الحبابي .

هذه الفلسفة تحاول أن تحدد المسلك الذي تبدأ به حركة الكائن الإنساني في عملية ومراحل تحوله من كائن خام إلى ما يسميه الحبابي بالكائن التاريخي ، هذا الكائن هو في

[1] وقيدي ، محمد ، جرأة الموقف الفلسفي ، إفريقيا الشرق ، د (ط) ، 1999 ، ص 150 .

نظره :" المعطى الخام الذي يحتوي على كائنات ممكنة لا نهائية . ويشكل بذلك القاعدة التي ترتفع شخصيات الشخص فوقها، هذه الشخصيات التي هي مختلف أنماط كينونته" [1] ، ذلك أن الشخصية التي يحققها الإنسان عندما يصل إلى بلوغ الكائن التاريخي هي شخصية التي تدرجت بالشخص وترتد إليه بعملية النمو والتمرحل ، وعملية التمرحل فعالية مستمرة تسير إلى الأمام بثبات ، ويشبه الحبابي هذا السير بـــ :" قطعة من القماش، فهذه القطعة في ذاتها معطى أولي يتخذ معناه بالنسبة إلينا عندما يتدخل الخياط ليحيكه إلى لباس محدد مثل الصدرية وكذلك الأمر بالنسبة للكائن فهو المعطى الأول بالنسبة للإنسان ، وهو ما يكون قابلا لأن يصير شخصا بعد الاندماج في المجتمع " [2] ، إذن بعد معرفتنا لمضمون الشخصانية كفلسفة ، يجب الآن أن نعرف الكيفية التي تتم بها عملية التحول ، حيث تسمى عملية التحول هذه بالتشخصن .

إن الوجود الإنساني وجود يتعالى عن الموجودات الأخرى بخاصية الوعي ، لذلك عملية إنتقال الإنسان من معطى أولي خام إلى الكائن التاريخي لا يشبه عملية تحول قطعة القماش إلى صدرية ، وعليه تتحدد معالم انتقال هذا الكائن في عملية التحول من الكائن الخام الى الشخص ، من خلال عملية التشخصن ، وعملية أو فعل التشخصن هي حركة متصلة المراحل وعملية مستمرة لا تعرف التوقف ، فهي بهذا فعل لا نهائي غير منحصر، حيث تقوم الذات الإنسانية بتجاوز ذاتها بنفسها ، من حيث هي تلك الذات التي لا ترضى بأن تنحصر في الحاضر أو ترتبط بالماضي ، وتوصف حركة التشخصن على أنها فعالية متجدّدة ، وحتى تحقق هذه سيرورة الى ما يسمى بالكمال نحو الانسان ةفي هذا يقول الحبابي :" فهي تنمي الشخص الى غاية تحقيق الانسان الذي هو التفتح الكامل للأنا والتحقق الأقصى للإمكانات التي يحتويها" [3] . إن عملية التشخصن التي نتحدث عنها هي عملية لا تتم إلا بتداخل ذرات أخرى ، ونقصد بها مشاركة الذوات الأخرى في تحصين هذه العملية وتقويتها ، فالأنا جزء من الآخرين فهو لا ينفصل عنهم ، يقول الحبابي عن أهمية البعد الاجتماعي : " فالفرد لا يتجاوز فرديته نحو الشخص إلا مع الآخرين ،فهو بطبيعته ألفة وتواصل ..." [4] ، وعليه فإن التواصل هو أساس عملية التشخصن التي تقوم عليه الشخصانية الواقعية عند الحبابي ، وهو تواصل وجداني ، والوجدان إمارة علاقة الأنا بالآخرين ، وداخل عملية التشخصن يحضر الوجدان كضامن لنجاح هذه العملية.

إن الانتقال من الكائن الى الشخص أمر مرتبط تمام الارتباط بفاعلية الاندماج في المحيط الاجتماعي ، والعلاقة مع العالم والغير ، وبهذا "فإن شخصية الإنسان أو بالأحرى مجموع شخصياته التي يتمظهر فيها عبر أدواره المجتمعية ، تتكون بفضل اندماجه وكيفياته" . لذلك كان جديرا بنا أن نؤكد على البعد المجتمعي لعملية التشخصن فالكائن يصير شخصا ضمن سيرورة علاقته بمحيطه المجتمعي ، وهي سيرورة لا تتوقف ، إذ يجد الكائن نفسه مدفوعا لاستمرار من تحول إلى آخر [5] ، إذن فالكائن يتحول الى شخص حينما يكون

(1) الحبابي ، من الكائن إلى الشخص ، دار المعارف ، القاهرة ، ط1 ، 1968 ، ص ، 25 .
(2) محمد وقيدي ، السابق ، ص ، 151 .
(3) الحبابي ، من الكائن إلى الشخص ، ص 15 .
(4) الحبابي ، من الحريات إلى التحرر ، دار المعارف ، القاهرة ، د(ط ، س) ، ص 46 .
(5) محمد وقيدي ، السابق ، ص 153 .

على علاقة بمحيطه ومندمج فيه كليا ، هذا الاندماج يشكل الاستمرارية للشخص ، لأنه يتحول من طور الى آخر ، ولا يمكن أن يتحقق هذا الفعل إلا بالإيمان بفعالية الاندماج والشخص ، بل الكائن يندثر ويموت إذا فك رابطته مع محيطه فالعزلة مرض لا يودي الى التحول.

ويجعل الحبابي لهذا التواصل إطارا عاما ألا وهو الحب ، هذا الحب الذي يشكل في الشخصانية الواقعية أساس التواصل ، والحب عند الحبابي أشكال مختلفة ولكنه في مضمونه هو حب واحد ، فهذا الحب هو :

أ - ذلك الارتباط الوجداني في شكله التوتري نحو الآخر في حد ذاته ولذاته ، هو ارتباط بسيط وقوي حيث يقول عليه الحبابي: "هو ذلك الشيء الذي يجعل المرء يتوتر أمام المرأة ، يحس أنه أفقه يتفتح ، وأن حضورها هو الجواب المطابق لما ينبعث من هذا الأفق من دعوات الى تواصل...[1].

ب- ذلك الملجأ التي تعود إليه العواطف الأخرى، فكل العلاقات مصدرها ذلك الحب في كل درجاتها وأنواعها ، فالحب والتألق والرحمة هي أنواع الإيجاب ، والكراهية والحسد هي أنواع السلب من الحب.

ج- هو ذلك الغذاء لبروحي الضروري لكل فرد ، هو الذي يلهم الفنان لمساته ، وللشاعر شعره ، وهو توتر الرجل أمام المرأة .

د- هو ألم المثقف على وطنه.

و- هو ذلك الشيء الذي ينمو بالتضحية ، وهو مبدأ للمعرفة ، والسلام ، ومن أعظم الميزات في حضارة ما ، فالحضارات تزدهر بازدهار الحب على التعاون ، وتتلاشى وتضمحل عندما تتفكك روابط التواصل.

إذن الحب هو التواصل الذي يحقق لعملية التشخصن الضمان الأساسي لنجاحها، فالحب عند الحبابي هو وازع مهم في هذه العملية ، لأن الانسان كائن مجتمعي وهذا ما نسميه بالبعد المجتمعي في الانسان ، هذا البعد الذي يقي الفرد أو الشخص من السقوط في النزعة الفردانية ، ويقيه كذلك من مخاطر الانعزال التي هي حالات مرضية تحول وتحول الشخص من طور الى آخر ، وهذا البعد هو الذي يحقق ويبرز المعنى الايجابي للوعي بالذات وعلاقتها بالذوات الأخرى ،"البعد المجتمعي أيضا معيار للفصل بين حالة السواء وحالة المرض عند الشخص ، لأن الشخص الذي يعود الى ذاته المنفردة ، أي إلى الكائن ، يرتمي في أحضان المرض النفسي ، فالكائن لا يكون أبدا كائنا بشريا ، إلا حبل بالشخص ، ونعني بذلك أن الكائن الذي ينحصر في الظهور دون انفعال بتأثيرات المجتمع كائن خام لا إنساني" [2].

التشخصن عملية مستمرة متواصلة لا تنتهي ،لأنها سلسلة من التحولات توجه الكائن إلى الشخص على حسب تفاعله مع وسطه ، لما يبتعد الإنسان عن هذا التفاعل يتوقف فعل التشخصن ، وتبدأ المسيرة الكائن نحو ما يسمى بالقطب السلبي للتشخصن ، وهي ما يسميها الحبابي بأمراض الشخصية التي تؤدي الى تفكك عناصر فعل التشخصن وهو ما نفهمه من

[1] الحبابي ، من المنغلق إلى المنفتح ، دار أنجلو المصرية ، القاهرة ، د (ط) ، 1971 ، ص 172 .
[2] الحبابي ، من الكائن إلى الشخص ، ص ، 12 .

القول التالي :" وتنتفي عملية التشخصن حين يعتري الكائن البشري انفصال عن حركة الحياة الجماعية التي يتطور بها الكائن نحو الشخص ، فعليه أن يعود إلى تركيز انتباهه في المواقف الجماعية " [1] .

وعندما نقف عند أهمية البعد المجتمعي في تحديد مفهوم الشخص ، ومظاهر عملية التشخصن المجتمعية، فإن هذا يحيل الى فهم الشخص من كل أبعاده النفسية والأخلاقية ، التي تلعب هي الأخرى دورها في عملية التشخصن ، وعن هذه الأبعاد يقول محمد وقيدي : " إذا كان الكائن ، على الصعيد النفسي ،هو القاعدة التي تنقلنا عملية التشخصن منها الى الشخص ، فإن الشخص هو السند الذي تقوم عليه الشخصيات المختلفة التي يظهر بها الشخص الواحد في أدواره المجتمعية المتباينة ،لكل واحد منها بشخصية ملائمة...كما أن شخصية الفرد تختلف عبر مراحل عمره" [2].

حينما نتكلم عن أبعاد الشخص المجتمعية ، ونصور الوعي في عملية التشخصن فإنه يتضح لنا الأمر أكثر دقة عندما نعود الى مظاهر الألفة والتواصل ، الذي يترجمه الحبابي بأن هذا التواصل عماده الوعي ، وهذا الأخير يتحقق عندما تدرك الذات الواعية وعيها بالذات الأخرى الواعية ، وهذان مستويان متلازمان من الوعي : "فالوعي بالغير يشترط وجود الأنا ووعيه بذاته من جهة ، ومن جهة أخرى فإن وعي الأنا بذاته لا يخلو من ملازمة الوعي بالغير له..." [3] ، فالشخص كما تصوره الشخصانية الواقعية ليس وعيا مرتبط بإدراك الذات لذاتها ، بل هو أيضا وعي ملزم بأن يتجه الى العالم وإلى الغير .

يتبين الآن أن هذا التواصل ضروري جدا ولا يمكن الاستغناء عنه ، لأن وجودنا ينحصر مع وجود ذوات أخرى تشاركنا التصور والوجود ، وتشاركنا في الطموح ، ولا يمكننا هنا أن نرفض التواصل ، لأننا إذا فكرنا في هذا فإننا نحذف أولى شروط وآليات التشخصن.

وإن أشكال هذا التواصل مختلفة ومتعددة منها ، اللّغة ،المعتقد ، المحبة والتعاطف ، والشخص هو ركيزة هذا التواصل بكل أشكاله ، وهنا يستوجب حضور الأنا الواعي ، والمدرك لأهمية هذه الحقائق بكل أبعادها ومراميها ، لأن هذا التواصل يندرج ضمن مكونات هذا الأنا ، وعن الشروط المؤسسة له يقول الحبابي :" الكائن السليم متفتح باستمرار على العالم يتواجه فيه الاكتمال والنقص ، وصراعهما هو المحرك الديناميكي الذي يخصب عملية التشخصن..." [4].

ولا يمكن أن نختلف على أن البعد الأخلاقي عنصر من العناصر الجوهرية التي تنحصر في جملة الأبعاد المجتمعية للشخص ، كون هذا الشخص مصدرا لهذه القيم الأخلاقية بكل مستوياتها ، لأنه الطرف المعني بممارسة هذه القيم ، كما أنه هدف من أهدافها ، فلا يمكن حصر الإنسان في مجموعة من الحاجات البيولوجية والأدوار المجتمعية معينة ، حيث يقول وقيدي في هذا السياق: " إننا نخضع لتأثير الحرارة والبرودة ، ونحس بالجوع

(1) محمد وقيدي ، السابق ، ص ، 153 .
(2) محمد وقيدي ، المرجع السابق ، ص ، 154 .
(3) محمد وقيدي ، السابق ، ص ، 154 .
(4) الحبابي ، من الكائن إلى الشخص ، ص ، 220 .

ولكننا نطمح إلى تحقيق هدف معين لأنه يكتسب خاصية وقيمة تجذبنا إليها ونختارها بإرادتنا" [1].

وإن هذا الشخص لا يمكنه أن ينجح في تحقيق هذا البعد الأخلاقي إلا إذا توفرت إمارة أخرى ، وهي الحرية ، وهذه الحرية يحققها الشخص ضمن تفاعله الجدلي مع شروط وجوده المادية والمجتمعية "ولذلك فالحرية الواقعية تعني مجموع الحريات ، أي مجموع الفعاليات الانسانية المحققة لها ، وهو ما تدعوه الشخصانية الواقعية بالتحرر" [2].

5. خاتمة:

إن الشخصانية الواقعية عند الحبابي هي حديث عن عملية التشخصن التي تتم عن طريق التواصل، هذا التواصل الذي يأخذ أبعاده المجتمعية في عملية التشخصن لباسه الحقيقي هو الحب ، الشيء الوحيد يتيح لنا حسب الحبابي معرفة ذواتنا وصلنا بالواقع ، لأن الشخصانية الواقعية ترتكز في صميمها على الواقع ، ولا يجب أن تخرج منه ولا عنه ، لأن الهدف الأول الذي قامت لأجله هو تغيير الواقع الإنساني ، فذا ابتعدت عن هذا المطلب لا يمكن أن تغدو فلسفة ذات مضامين .

قائمة المراجع :

الكتب :

اليابوري ، أحمد وآخرون ، دراسات مغربية ، المركز العربي الثقافي ، المغرب ، ط2 ، 1987 .
العراقي ، عاطف ، العقل والتنوير في الفكر العربي المعاصر ، دار قباء ، مصر ، د(ط) ، 1998 .
وقيدي ن محمد ، جرأة الموقف الفلسفي ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، د(ط) ، 1999 .
الحبابي ، محمد العزيز ، من الكائن إلى الشخص ، دار المعارف ، مصر ، ط1 ، 1968 .
الحبابي ، محمد العزيز ، من الحريات إلى التحرر ، دار المعارف ، مصر ، د(ط) ، 1982 .
الحبابي محمد العزيز ، من المنغلق إلى المنفتح ، دار أنجلو ، مصر ، د(ط) ، 1971 .

المجلات :

[1] محمد وقيدي ، السابق ، ص ، 157 .
[2] محمد وقيدي ، السابق ، ص ، 159 .

الحبابي محمد العزيز ، دور المثقف اليوم وعلى مر العصور ، مجلة الأصالة ، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ، العدد : 20 ؟، جوان 1974 .
جمول محمود ، مدخل إلى فلسفة الشخصانية ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، مجلد 17 ، العدد 1 ، مارس 1986 .